فلسفة التربيـــــة

تطبيقات على التربية فى مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٣ —

« إن مصر لتدين لعظمائها الفلاحين بأكثر مما تدين لغيرهم ! »
« جاكسون »

« ولا بد من أن يطلب غداً أولئك الذين يحفون ثروة الأمة شيئاً أكثر من الكلمات ! » « جاكسون »

« قد تستطيع أن تسوق الجواد إلى النهر ؛ ولكنك لا تستطيع أن تجعله يشرب منه » « مثل سائر »

٣ — التعليم الالزامى والديمقراطية

رأيت فى المقال الماضى انقسام عقلية المثقفين القلائل فى الأمة إلى معسكرين متباعدين ، وتبينت ما فى ذلك الانقسام من ضعف يؤثر فى وحدة الأمة ويعرقل نهضتها ، وسترى اليوم ناحية أخرى هامة وخطيرة هي ناحية التعليم الإلزامى ...

ويكون من مظاهرها الكتابة والقراءة والخطابة . ولكل من هذه الغايات أصول تمتد الى أعماق الفكر وتتصل بأطوار النفس

أما الأغراض التى نرمى اليها اليوم فهي قاصرة لأنها تقف عن أن تدرك كل تلك الغايات . إن تعليم العربية عندنا يقتصر على تلقين ألفاظ غير محددة وهو يخلو من الرياضة الجمالية التى ينبغى أن نرمى اليها . أما وجهتها النفعية فهى لا تعلو الى أن تكافىء حاجات كل يوم فضلاً عن حاجات النفس العميقة . ولا يستطيع معلم أن يقول انه يتجه اتجاهاً فكرياً فى تعليم الألفاظ ولا إنه يصطنع الدقة فى تلقينها الا قليلاً

أغراضنا اذن من تعليم العربية كما نعلمها الآن غير واضحة . وهى فى الحق شعبة من اتجاه الكتاب والمفكرين عندنا عامة . ولكننا نلخص الأغراض التى يجب أن تحل عندنا فى التدريب العقلى أولاً وفى الرياضة الجمالية الحسية ثانياً وفى الانتفاع بها ثالثاً

١ — كلمة الديمقراطية

وأحسب أنك تدرى تماماً كلمة الديمقراطية فى ذلك المجال بعد كل ما قدمنا من قول ! بل وأحسب أنك تذكر يقيناً عبارة الرئيس « وشنطن » فى المقال الماضى ، وما فيها من مبدأ عظيم يجعل مقياس نجاح الحكومة منحصراً فى دائرة زيادة خير أولئك الذين لا تكاد توجد عندهم ضرورات الحياة الأولية فحسب ، لا أولئك الذين عندهم الكثير وأكثر من الكثير ! ! وإذاً فلن تعجب إذا عرفت أن الديمقراطية تطالب هنا بمساواة « الجميع » فى فرصة إظهار الكفايات ، وتنظر للتربية كوسيلة جوهرية تنوم للشعب مقام الصلاحية للبقاء عند الحيوان ، وترتقى به من مستوى العجماوات إلى مستوى الإنسان ، وتسد ما بينه وبين الطبقات الراقية من هوة سحيقة مليئة بالبؤس والشقاء ، والفوضى والاضطراب ؛ وتؤهله أخيراً لأن يحقق معنى الحياة الديمقراطية بمطالبها الاجتماعية والسياسية على أصح وجه تنشده هذه الحياة !

٢ — التعليم الحاضر

فترى هل حقق التعليم الإلزامى المصرى الحاضر مطالب الديمقراطية الصحيحة أو نهج على الأقل نهجاً قويماً نحو تحقيقها ؟ ذلك هو السؤال الذى يجب أن نسأله ، والذى ينبغى أن نستمع فيه لإجابة النظار والمدرسين والفلاحين قبل أن نستمع لا جابة النواحى الأخرى ، والذى يجب أن نستوحى فى فحصه مبادئ الديمقراطية أكثر مما نستوحيها فى غيره ، فترى ماذا عسى أن يكون الجواب ؟

أحسب الأمر واضحاً لا يحتاج إلى جلاء ، فأكثر من خمسة وثمانين فى المائة من سكان هذا البلد أميون بكل ما فى الأمية من معنى الفقر الأدبى المروع ، وميزانية التعليم الالزامى ضئيلة إذا قيست بميزانية بعض النواحى الأخرى التى تقل عنها فى الضرورة والخطورة ؛ هذا إلى أننا كثيراً ما نبعثر ألوف الجنيهات فى الكماليات التافهة غير ناظرين إلى حاجة مثل هذا التعليم إليها ، ومع ذلك فتعليمنا الالزامى الحاضر ما يزال مشوباً بألوان من النقص يسيرة وعسيرة ، وحسبك أن تعلم أولاً أن « مبدأ المساواة فى فرصة إظهار الكفايات » مهدوم حياله من أساسه لأن المتخرج منه لا يستطيع قط أن يطرق باب التعليم الابتدائى وما

بعده من فنى أو ثانوى أو جامعى إلا فيما شذ وندر[1] ، وبذلك أصبح الذكاء الشعبى محروماً من الدخول فى حومة الثقافة الراقية الواسعة والتلذذ بما فيها من نعيم ، وخدمة الوطن عن طريقها خدمة نافعة ! ثم حسبك أن تعلم أن أحد نظار مدارس هـذا التعليم قد كتب إلىّ مقرراً أشياء كثيرة خطيرة ، أهمها قلة مرتبات المدرسين بالقياس إلى عملهم المرهق الذى كثيراً ما يقفز إلى ٤٨ حصة فى الأسبوع[2] !! وكثرة أعمال الناظر (أو رئيس المكتب) الإدارية إلى جانب أعماله كمدرس مما يحول بينه وبين القيام بواجبه على النحو المنشود ، وسوء أماكن الدراسة وقذارتها وعدم وجود الأفنية والمظلات ، وتعسف حضرات المفتشين أحياناً وأخذهم المدرس باللوم أمام التلاميذ !! وجمع الكتب من الأولاد فى آخر الدرس ، وعدم اتفاق بعض هذه الكتب ومادة المنهج المرسوم !! ثم خروج المتخرج منها أخيراً دون أن يحذق أبسط تعاليمها وهي القراءة والكتابة ، نظراً لحشو المنهج بالمعلومات غير اللازمة من ناحية ، ولعدم استطاعة المدرسين البؤساء التعساء القيام بمهمتهم كما ينبغى من ناحية أخرى ...!!

هذا وقد بحث الأستاذ « جاكسون » تلك الناحية فى رسالته الآنفة فراح يقول : كيف يكون التعليم مجدياً وهو إلزامى بكل ما فى الإلزام من معنى ؟ إن التعليم الحق هو ما أتى من « الداخل » فحسب ، وكل تعليم لم يأت من هـذه الناحية لا يكون أكثر من طلاء خارجى كله تشدق بالألفاظ وغرور وكبرياء لا يجديان فتيلا . ولذلك ما يلبث أن يسقط غير تارك وراءه إلا المكر والاجرام إذا لم يحل محله غرس خلق متين ، وإذاً فكان الأفضل أن يترك القروى فى مثل هـذه الحال ليتعلم من الرياح والنجوم والذوق العام ، وأن يبقى أمياً بريئاً ساذجاً لا يعرف كيف يعلو على أهله ويحتقر الفأس والأرض ، ولا كيف يتزح إلى المدينة ليعيش عيشة أرقى وأنظف !!

لذلك كله لم يسع الآباء بعد هذا التعليم ولم يشعروا شعوراً كافياً بالحاجة القصوى إليه ، ويساعدهم على ذلك ضعف الدعاية اللازمة ، وعدم جاذبية الدرسة ، واشتراك الناظر والمدرسين فى صب هذا « الالزام » على رؤوسهم ورؤوس أولادهم[1]

٣ — *العلاج*

وينحصر العلاج الناجع الذى يراه الدكتور « جاكسون » لتدارك هذا الموقف فى ناحيتين . الأولى تغيير المنهج بحيث يلائم حاجات البيئة ولا يبدو كأنه مفروض من سلطة متعسفة ؛ ويتأتى ذلك باشتماله على دراسة عملية للتربة أو الدورة الزراعية ، وأنواع الأسمدة ، وحياة الحشرات والنباتات والزهور ، والقيم الغذائية للمواد المختلفة ، وأصول صحة المنزل فى الدائرة القروية الممكنة ؛ كل ذلك إلى جانب القراءة والكتابة والمعلومات الأخرى التى تقرب بينه وبين الطبقات الأرقى وتحببه فى العمل والعاملين ، وتسد الهوة بينه وبين أبناء الأثرياء المنعمين !

أما الناحية الثانية : فتتلخص فى دعاية واسعة النطاق غايتها تحبيب الشعب فى ذلك التعليم بكل الوسائل حتى لا يكون هناك إلزام بالمعنى المكروه . ويحسن أن تكون هذه الدعاية عن طريق زعماء الشعب أنفسهم ونوابه وكل من يجلهم ويقدر كلمتهم ، آنا بالحضور الشخصى وآنا بالإذاعة ، كما يحسن أن يشترك فى هذه الدعاية أغنياء القرى وذوو النفوذ بها ، وأن تصطحب الدعوة فكرة دينية أو وطنية ، وأن يقضى فيها نهائياً على القول القائل بأن معنى التعليم هو إلقاء الفأس وإمساك القلم ؛ وبهذا وبغيره يصبح التعليم ضرورة لدى الفلاح ، فيسعى إليه بنفسه ، ويعتبره فريضة دينية أو وطنية !

٤ — *الحاجة الى مدارس جديدة*

على أن الإصلاح لا ينبغى أن يقف عند هذا الحد . إذ يجب

(١) ليس لخريج التعليم الالزامي فى الغالب إلا الحقل أو الأزهر أو تجهيزية المعلمين وبالمثل ليس لخريج التعليم الأولى إلا مثل هـذا الطريق . ولا يكاد يدخل التعليم الابتدائى إلا أبناء الموسرين ومن إليهم ، والهوة سحيقة جداً بين هذا التعليم والتعليم الالزامى !!

(٢) ويوجد بجانب هـذا التعليم نظام التعلم الأولى . وبالرغم من أنه يشابه التعليم الالزامى فى المنهج وكفاية المدرسين إلا أن أجر المدرس فيه وعمله غيرهما فى التعليم الالزامي . وحسبك أن تعلم أن المدرس بالتعليم الأولى قد يتقاضى أجره الشهرى إلى نهاية أو عشرة جنيهات بينما لا يعدو أجر المدرس الالزامى إلى أكثر من أربعة جنيهات وربع جنيه ! هذا إلى أن عمل ذى الأجر الأكثر لا يزيد على ٢٨ حصة ، وإلى أن نظام تنبيت ناظر الالزامى عسير للغاية وفى كل ذلك بالطبع من إماتة نشاط المدرس وإخلاصه ما فيه

(١) كثيراً ما يسوق المدرسون الأولاد إلى المدرسة بعد الامساك بهم فى بيوت أهليهم . وكثيراً ما يحرر الناظر بنفسه إنذارات مخالفة قانون الاجبار . والعجيب بعد هذا أن محاكمة المخالفين لهذا القانون يطول أجلها أحياناً وتنتهى بضياع عطف السنة أو جلها على المتعلم

أن يختلف تعليم القرية تماماً تبعاً لاختلاف بيئتها ، ويجب أن يكون المحور الأساسي فيه هو ربط عمل المدرسة بعمل الحقل ، ويجب أن تتجدد المدرسة ذاتها في نظامها العام والخاص تجدداً يزيل طابعها القديم في نفوس الفلاحين . يجب أن يكون البناء جذاباً ويجب أن تزاد الثقافة الفنية للمدرسين على نحو خاص يمكنهم من النجاح التام في أداء مهمتهم العظيمة الخطيرة[1] ويجب أن يكون بالمدرسة استعداد تام للخدمة الطبية ، وأن يكون التعليم الديني بها على وجه منتج ومفيد لا مجرد آيات تقرأ وتحفظ فحسب ؛ هذا إلى وجوب نزول المدرسين بها إلى العمل مع التلاميذ حتى يضربوا لهم المثل الصالح في حب العمل وتقديره ، وإلى وجوب تزويد كل ولد أو بنت بكتب الحفظ كالدين والأدب والعلم ، على أن يكون بالمدرسة ذاتها مكتبة عامة للتلاميذ والأهالي والخريجين جميعاً ...

ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى ماذا يمنع أن تكون المدرسة مركزاً لتعليم الآباء والأمهات تعليماً خاصًّا ، ولإدخال السرور والابتهاج على أهالي القرية بما تقيمه في الآن بعد الآخر من مباريات طريفة ؟ وماذا يحول بين رجالها وبين جمع الحكم والأغاني والذكريات والأشغال المحلية بين جدرانها حتى يخرج التلميذ عارفاً بحياة بيئته وبتاريخها وبشتى نواحي النشاط فيها ؟ إننا بهذه الطريقة نجعل المدرسة خير صديق للقرية ، ونجعل الحياة في القرية ذاتها محبوبة لا تدعو إلى تفضيل حياة المدينة عليها

قد يقول قائل إن هذا مشروع ضخم وفي الفطر حوالي ثلاثة آلاف وأربعمائة قرية ! ، وهو بالفعل كذلك ولكنه بعد ضرورة ملحة في القرن العشرين ! ، قرن المدنية والنور ! وإذا فلتضغط الحكومة مصروفاتها الكمالية ضغطاً ، فإنها إن فعلت استطاعت — مع الخطة الحكيمة — أن تنفذ هذا المشروع في بضع سنين !

٥ — تعليم البالغين في السويد وانجلترا

أما تعليم البالغين فيتطلب مجهوداً آخر . وها هي السويد قد أسست حوالي ٥٤ مدرسة لإشغال فراغهم بدراسة اللغة والاقتصاد المنزلي والرياضة والموسيقى وأشغال الإبرة والخشب والمعادن . وها هي انجلترا تبعث بمحاضر كفؤ ليحاضر طلبة أمثال هذه المدارس بها في شئون عامة كالطفولة والتمريض ، وآداب اللياقة ونحوها ، وكثيراً ما يستعان هناك بالراديو في نشر الثقافة القروية الملائمة[1]

فترى ماذا يمنع مصر من الأخذ بمثل هذا النظام ؟ وكيف السبيل إلى الاستفادة من مشروع « المجموعات القروية » مثلا إذا لم توجد أولا العقول المهيئة للاستفادة والفهم ؟

خاتمة

يجب إذاً أن تتيح للفلاح حياة أرقى ، وألا نتخذ من عدم شكواه وسيلة إلى إهماله . إن النور سيطرق بابه عاجلا أو آجلا ، وسوف لا يرضى حينئذ بحظه الراهن قط . بل هو على النقيض سيطالب بحياة أكثر تنوعاً ، وبعمل أقل إرهاقاً ، وبفرصة لكفاح أبنائه أكثر اتساعاً . نعم لا بد من أن يطلب غداً أولئك الذين يخلقون ثروة الأمة شيئاً أكثر من الكلمات ! .

« يتبع »

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية الأميرية

(١) اعترف لي بعض حضراتهم أن مقرر التاريخ يحوي دروساً عن الاسكندر ومينا وتحتمس وغير هؤلاء مما لم يحسنوا دراسته

(١) وتقوم جمعية « نهضة القرى » في مصر بتكليف الطلبة بنشر بعض نواحي هذه الثقافة بين البالغين ، ولكن ما يزال الأمر محتاجاً إلى دقة الحكومة وحزمها وإشرافها

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الأديب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ، وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة وصدر منذ أسبوع

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع في جميع المكاتب الشهيرة